Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

مقاربة بلاغية حجاجية لخطبة "دير الجماجم" للحجاج بن يوسف الثقفي (ت95هـ)

Pilgrim approach IN "DIR EL DJAMEDLIM

AS A MODEL

سليمة محفوظي salima mahfoudi
جامعة محمد الشريف مساعدية مخبر اللغة والأدب العربي University of Mohammed chérif mesaadia
salima.mahfoudi66@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2019-10-20 تاريخ القبول : 2020-02-25

ملخّص:

يرى جلّ النّقاد أنّ نجاح الخطاب يكمن في التّلازم بين الحجاج والأسلوب وهو المبدأ الذي حضر في تراثنا البلاغيّ بصيغ مختلفة؛ تجده عند ابن جني وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم ممن رأوا في المقومات الأسلوبيّة أغراضا ومعاني وفوائد يجنيها المتلقي على نحو ما نجده في الإبداعات الأدبيّة الشّعرية والنّثرية.

ومن هنا كانت فكرة البحث في مقاربة خطبة الحجّاج بن يوسف الثقفي بعد "دير الجماجم" من منظور بلاغي حجاجي للوجوه الأسلوبية فيها، انطلاقا من مبدأ التّلازم بين الأسلوب والحجاج وكيف تتحوّل الأساليب البلاغية إلى حجج تخدم غرض الخطاب ، فالمقاربة البلاغية للوجوه الأسلوبية معنية بما تحمله من أبعاد حجاجية ،وهذا ما تسعى هذه المقاربة إلى إثباته من خلال تحليل نص الخطبة .

كلمات مفتاحية: الأسلوب ؛المُخاطِب ؛المتلقي ؛ الحجج؛لإقناع.

Abstract

Most critics believe that the success of the discourse lies in the correlation between Persuasion and style, a principle that was present in our rhetorical heritage in different formats. It is found in Ibn Jinni, Abd al-Qaher al-Jarjani and others. Hence the idea of an approach of the Hajjaj bin Yusuf Al-Thaqafi after the "monastery of skulls" from the rhetorical point of view of its stylistic faces, based on the principle of congruence between the method.

This approach tries to prove by analyzing itself.

Keywords: Style; The speaker; receiver; Arguments; Persuasion

1- مقدّمة:

اتجهت معظم القراءات الحديثة إلى إعادة النّظر في الأدب العربيّ القديم، شعرا ونثرا، وذلك بعد انفتاح نظريات النّص الحديثة على النّموذج التّداوليّ وتجديد البلاغة القديمة،أي؛ أن هذه الدّراسات استفادت من صعود المكونيّن الحجاجيّ والتداوليّ في نظريات النّص الحديثة،. فلا شك أنّ ظهور نظريات الحجاج في الدّراسات اللّغويّة الحديثة بالاستناد إلى الاجتهادات المهمّة التي دشنها أعلام كبار أمثال تيتيكاه و شايم برلمان Perelman et Tyteca وديكروDicro ، وشيوعها في الدّراسات البلاغية عند أوليفي ريبول Olivier Reboul وغيرهم، خلقت معيارا جديدا في أفق توقع القراء العرب المعاصرين الذين ينظرون إلى مطلق النّصوص من منظور وظيفيّ؛ وهكذا تمّ استعادة البعد البيانيّ الذي ركّز عليه القراء القدامى في نظرتهم للنثر العربيّ عمومًا، ولكن بعد أن طوّروه وصقلوه في إطار نظري جديد اتسم بانتعاش نظريّات الحجاج.

تسعى هذه الورقة البحثية الوقوف على مبدأ التّلازم بين الأسلوب والحجاج، أي؛ المقاربة البلاغية للوجوه الأسلوبيّة بما تحمله من أبعاد حجاجيّة، والذي تتحقّق عن طريق مجموعة من الأساليب و الإنزياحات والمحسّنات التي يوظفها

المتكلّم لإقناع المتلقي وحمله على الإذعان، وإذا كان الأمر كذلك فالمناسب البحث عن البنيات الملحوضة في الخطبة و الأثر الناجم في المتلقي وذلك باعتماد المنهج الوصفيّ التحليليّ الذي نراه يخدم غرض البحث.

2- ميادين الحجاج

عرف الدّرس اللّسانيّ الحديث ميلاد بلاغة أطلق عليها الباحثان بيرلمان وتيتيكاه Chaim Perelman et Lucie Olbrechts Tyteca البلاغة الجديدة قوامها الحجاج L'argumentation والتي تعرف بأنّها" نظريّة الحجاج التي تهدف إلى دراسة التّقنيات الخطابية و تسعى إلى إثارة النّفوس، و كسب العقول عبر عرض الحجج ، كما تهتم البلاغة الجديدة أيضا بالشّروط التي تسمح للحجاج بأن ينشأ في الخطاب ثم يتطوّر، كما تفحص الآثار النّاجمة عن ذلك التّطور .فالحجاج وسيلة للإقناع،وخاصة وسيلة للإبداع أي" جلب أشياء إلى ذهن السّامع ليست حاضرة في ذلك الحين "[1]

قدّم الباحثان عملا ركّزا فيه على الإقناع النّاتج عن وعيّ ودراية بجميع معطيات الخطاب.فالحجاج بالنّسبة لهما عبارة عن"تصوّر معيّن لقراءة الواقع اعتمادا على بعض المعطيات الخاصّة بكلّ من المحاج والمقام الذي ينجب هذا الخطاب "[2]وإذا كان الإقناع هو مجال المبحث الحجاجي فإنّ "الفعل هو أهمّ وظيفة حجاجيّة في هذا المجال حيث تتطلب وعيا بآليّات من شأنها تحريك المعنيّين بالكلام صوب الفعل وتغيّره بما ينسجم مع المقام"[3].ذلك أنّ غاية الحجاج هو الوصول إلى استمالة المتلقي وحثه على احتضان أفكار المُتكلّم.

وفي المقابل ذهب المفكر اللسانيّ ديكرو O. Ducrot أن الحجاج "هو بيان ما يتضمّنه القول من قوّة حجاجيّة تمثل مكوّنا أساسيّا لا ينفصل عن معناه و يجعل المتكلّم في اللّحظة التّي يتكلّم فيها يوجّه قوله وجهة حجاجيّة معيّنة"[4] ،وبالتّالي حصر درس الحجاج "في نطاق دراسة اللّغة لا في البحث عما هو خارجها وحصر وظيفة الحجاج في التّوجيه l'orientation الذي"يحصل في مستويّين :مستوى السّامع ومستوى الخطاب نفسه خاصة ،مع ما بين المستويين من تداخل، والآية في توجيه السّامع أنّنا حين نتكلّم إنما نسعى للتّأثير في السّامع ، أو مواساته أو إقناعه أو جعله يأتي عملا ما ،أو إزعاجه أو إحراجه وغير ذلك... وعلى مستوى الخطاب حيث إن الحاجة من أجل الحصول على النّتيجة (ن) بواسطة(أ) إنمّا هي في نظرنا ضرب من تقديم (أ)على أنها ينبغي أن تؤدي بالمتلقي إلى استنتاج(ن) وجعل (أ) كعلّة لاعتقاد(ن) "[5]

وعلى الرغم من تحديد أوليفي ريبول OlivierReboul للبلاغة باعتبارها خطابا في وصف أساليب الحجاج؛ فقد سعى هذا الباحث إلى التّقريب بين الحجاج والأسلوب (أو بين الشعرية والبلاغة) إذ يرى أن الإمتاع والحجاج وظيفتان متلازمتان؛ فالصّورة تضطلع بالحجاج، كما أنّ الحجّة تتّسم بمجموعة من الخصائص تقربها من الصّورة مثل "انعدام الدّقة" و"تفاعل الذوات" و"السّجال"؛ وهذا التّلازم بين الحجاج والأسلوب هو الذي يُشكّل جوهر البلاغة في تصور ريبول[6]: "إنّ الحجّة نفسها يمكن أن تكون صورة. وبشكل عام،إنّها تتمتّع بالخصائص ذاتها التي تُميّز الصّورة، وهي عدم الدّقة وتفاعل الذّوات والسّجال".[7]إنّ جوهر البلاغة بالنسبة إليه لا ينبغي البحث عنه " لا في الأسلوب ولا في الحجاج، بل في المنطقة التي يتقاطعان فيها بالتّحديد. بعبارة أخرى، ينتمي إلى البلاغة بالنسبة إلينا كلّ خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كل خطاب تحضر فيه الوظائف الثلاث: المتعة والتعليم والإثارة مجتمعة متعاضدة؛ كلّ خطاب يقنع بالمتعة والإثارة مدعمتين بالحجاج"[8].

تكمن البلاغية إذن في التّلازم بين الحجاج والأسلوب أو بين الإقناع والإمتاع، وهو المبدأ الذي حضر في تراثنا البلاغي بصيغ مختلفة، تجده عند ابن جني وعبد القاهر الجرجاني والسكاكيّ وحازم القرطاجانيّ وغيرهم ممنّ رأوا في المقومات الأسلوبيّة أغراضا ومعاني وفوائد يجنيها المتلقي، على نحو ما تجده في الإبداعات الأدبية الشعرية والنثرية.

3- نص الخطبة

جاءت الخطبة بعد وقعة **دير الجماجم*** التي نشبت بين الحجّاج يوسف الثقفي** وبين بن الأشعث*** عامل الحجاج على سجتان سنة(83ه) قرب الكوفة وكان الحجّاج قد وجّهَهُ في جيش كثيف حسن العدة، وكان يسمى جيش الطواويس إلى

سجستان لغزو رتبيل ملك زابلسنان، ففتح كثيراً من بلادهم، وكتب إليه الحجّاج يستعجزه ويغلظ له، فدعا من معه من رؤساء أهل العراق إلى خلع الحجّاج، فأجابوه إلى ذلك؛ لبغضهم له، وخوفهم سطوته، فخلعوه. فاقتتلوا بدير الجماجم نحواً من أربعة أشهر، فكانت الوقائع بينهم فيما قبل نحواً من ثمانين وقعة،، ثم انهزم ابن الأشعث وأهل العراق، وقتل منهم جمع كثير، وسار ابن الأشعث إلى البصرة، وتبعه الحجّاج فخرج عنها، فكان التقاؤهم بمسكن من أرض العراق، فهزم أهل العراق وقتلوا قتلاً ذريعاً ومضى ابن الأشعث فيمن تبعه حتى صار إلى سجستان ، فاستقبله رتبيل ثم غدر به وسلمه إلى صاحب الحجّاج فسار به يريده فألقى ابن الأشعث نفسه من فوق قصر من قصور الرخّج فمات، فأخذ رأسه وصير به إلى الحجّاج، وذلك في سنة 84. فوجه به الحجّاج إلى عبد الملك بن مروان ليحتفل بهذا النّصر العظيم.

4-تحديد نوع الخطاب

توزعت أجناس الخطابة عند أرسطو بين ثلاثة أجناس خطابية هي: القضائية والاستشارية والاحتفالية. غاية الأولى هي الدّفاع أو الاتّهام ، وغاية الثّانية نصح أعضاء جمع سياسي ما،وغاية الثّالثة هي المدح أو الذّم في محفل جماهري[9]. فالخطبة إذن تنتمي إلى المقام الاحتفالي؛ لأنّ الخطيب يتوّجه بخطابه إلى ذمّ أهل العراق وازدراء أخلاقهم وسوء بطانتهم "يأهل العراق، والكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات، والنزوات بعد النزوات".في مقابل مدح أهل الشّام " أنتم الجنة والرداء". لاشك أنّ قراءة نص الخطبة في إطار هذا النّوع البلاغيّ ووضعه في سياق تواصليّ احتفاليّ، تَوجُّهٌ يخطئ السّبيل نحو فهم صحيح لطبيعته البلاغية؛ لأنّ هذا النّص لا يخاطب متلقيا مؤيدا للأطروحة التي يصدر عنها، ولا يصف فئة تحظى بالاستحسان ، وليست غايته في النهاية-كما في كلّ خطاب احتفاليّ- تعزيز إذعان المتلقي إلى القيم المشتركة بينه وبين الخطيب، بل هو نص موجّه إلى مستمع معترض على الأطروحة، ويصف فئة غير مقبولة من الخليفة، وليست القيم المشتركة التي يستند إليها سوى مقدمات حجاجية ووسائل للحصول على قرار عملي وخلق الفعل[10].

غير ما يشغلنا بالأساس في هذا البحث هو الوقوف على مبدأ التلازم بين الأسلوب والحجاج؛ أي المقاربة البلاغية للوجوه الأسلوبية بما تحمله من أبعاد حجاجية، والذي تتحقّق عن طريق مجموعة من الأساليب والإنزياحات والمحسنات التي يعمد إليها المُتكلّم لإقناع المتلقي وحمله على الإذعان .وبالتالي التّأكيد على أنّ الحجاج لا يعني حشد الحجج فحسب بل يعني كذلك جملة من الاختيارات الأخرى على مستوى المعجم والتّركيب وأزمنة الأفعال وصيغ الكلمات وأنواع الصّور ومصادر التّصوير، واختيارات تراعي غاية الخطاب وتستجيب لعلاقة الخطيب بالمتلقي "فالمتكلم بحكم وجوده في حظرة السامع يستطيع السيطرة عليه، ويمكنه جعل القول على قدر حاجته وصياغته على مقدار انفعاله به أو رغبته عنه كما أنه قادر على شدّ انتباهه حتى لايسهو عن قوله... وهو في كل ذلك يعضد اللّغة ويسندها بالإشارة ويقوي قدرتها على الفعل والتأثير بالتلفظ وضروب المعونة من أساليب المبالغة والتأكيد والإستعارت[11] .فالخطبة التي بين أيدينا قائمة على علاقة تفاعل بين الخطيب والمستمع (أو بين الخطيب والمتلقي الكوني) وليست نصا معزولا . ومن هنا يتوجب البحث عن البنيات الملحوضة في الخطبة وهذا ما ينسجم مع أسلوبية الأثر عند ريفاتير. وليس الغرض منه - حسب مونان- التساؤل عن سبب التأليف بل عن كيفية اشتغال الأسلوب وتأثيره في المتلقي.

5-حجاجيّة الأسلوب

يعتبر أسلوب الخطاب "قوة ضاغطة يسلطها المتكلّم على المخاطب بحيث يسلبه حرية التّصرف إزاء هذه القوة، فكأن الأسلوب أصبح بمثابة قائد لفظيّ للمتلقي ،هذه القوة الضّاغطة تتمثل فيها عملية الإقناع بوسائلها العقلية والتي من خلالها يسلّم المتلقي قياده للفكرة المُوجّهة إليه، كما تتمثل فيها عملية الإمتاع التي تُلون الكلام بكثير من المواصفات العاطفية والوجدانية، بحيث تكون هناك مزاوجة بين الجانب الإقناعي والجانب الإمتاعي، كما تتمثّل فيها ثالثاً عملية الإثارة والتي بها يُوقّف المبدع المشاعر التي كانت مختزنة عند المتلقي - أو يجمدها - تمهيداً لإحلال انفعالات جديدة، مسببة عن الطاقة الفكرية والعاطفية الموجهة إليه، ومن ثم يمضي الشّخص المثار في اتجاه ردود الفعل المثارة"[12].

فالأسلوب عند بعضهم يدّل على طريقة العرض في أداء المعنى، مثلما نجد ذلك عند القاضي علي بن عبد العزيز

الجرجاني (392ه) الذي رأى أن اختلاف القوم في نظم أشعارهم إنما هو نابع من اختلاف طبائعهم، وتركيب خلقهم [13]فلا يكون الغزل كالافتخار ولا المديح كالوعيد ولا الهجاء كالاستبطاء ولا الهزل بمنزلة الجد «فالمدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه"[14] وربما اقترب من مفهوم النظم الذي يمثل الخواص التعبيرية في الكلام، وذلك نجده ماثلا في كتابات عبد القاهر الجرجاني (471ه) إذ قال: "واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشّعر وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعر في معنىً له وغرض أسلوبا - والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه- فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال قد قطعها صاحبها، فيقال قد احتذى على مثاله" [15] وعليه فالأسلوب في رأي الجرجاني ضرب من النظم أو الطريقة التي يتوخاها الكاتب أو الشاعر في تنضيد كلماته .

ويعتبر الأسلوب في الثقافة اليونانية جزءا لا يتجزأ من بلاغة الخطاب[16] وترجع أهمية الأسلوب في نظر أرسطو"إلى أن عامة النّاس يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم،فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة..."[17].

وقد تَبنى المحدثون العرب ما ذهب إليه القدماء في نظرتهم للأسلوب،لذلك جاءت تعريفاتهم للأسلوب مقاربة لتلك المعاني في مضمونها العام، ومن أبرز التعريفات التي أطلقها المحدثون على الأسلوب قولهم هو "طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصّة في اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام[18] و"طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير"[19] كلّ التعريفات تتفق على أنّ الأسلوب هو طريقة الإنشاء أو طريقة اختيار الألفاظ مما يدل على مدى تأثرهم بالدّراسات القديمة والأسلوب في الدّراسات الغربية فيكمن" في الاختيار الواعي لأدوات التعبير."[20]

ويرى آخرون أن الأسلوب هو"وجه للملفوظ ينتج عن اختيار أدوات التعبير، وتحدّده طبيعة المتكلّم أو الكاتب ومقاصده"[21] ولهذا نجد أن المتكلّم يختار الأسلوب الذي يناسب الموضوع المطروح،وذلك من خلال توظيفه لصيغ وتراكيب تخدم غرضه وتزيد من درجة حضور الفكرة.

وبالعودة إلى نص الخطبة محل التّحليل نسجل الأساليب البلاغية التالية :

1.5.الاستفهام: تنشأ الحالة العامة للسّؤال من فراغ معرفي يسعى السّائل من خلاله إلى ملئه مراهنا على اكتمال معرفة مخاطبه وقد يسعى المتكلّم إلى معرفة ما إذا كان المتلقي يمتلك الإجابة أم لا ،كما هو الشّأن في السّؤال التّعليمي يلقى لتأكيد فهم المتعلّم للدرس، وقد يلقى لاستدراج المتلقي إلى الإدلاء بحقيقة يعلمها (الاستجوابات) .كما يلقى لأسباب أخرى من تسلية (بين الأصدقاء) ووضع حد للصمت وجلب الأنظار، أو التّجريح أو التّعريض أو لاستظراف المتلقي أو التّأثير فيه. فهو "ذو قوة حجاجية تعادل ما في القيم والمواضيع المشتركة التي بتوسلها المحُاج لحمل مخاطبه على الإقناع لما يقوله له أو استمالته والتّأثير فيه باعتماد صنوف من الحيل لعل أهمّها فنون إلقاء السّؤال "[22].

ومتى نظرنا إلى خطبة الحَجّاج – قيد التحليل- يتبدى لنا أهمية هذا المظهر البلاغي داخل الخطاب الإقناعي الموجّه إلى أهل العراق بضرورة الانصياع لحكم الحَجّاج .فجميع الصّيغ التي قدم بها الاستفهام جاءت استنكارية ولم يكن الغرض منها انتظار الجواب. فقوله: "ألستم أصحابي بالأهواز"نستشعر أن الغرض منه كان استفزازيا/ استنكاريا/ توبيخيا متى تدبرناه في ضوء العلاقة بين الحَجّاج وأهل العراق المتّسمة بالتّوتر والنّفور ورفض أهل العراق له من جهة، ومحاولته إخضاعهم لسلطته من جهة ثانية، والذي أراد من خلاله التّأثير في المستمع بوضعه في صورة الظّالم الذي يجب عليه تغيير سلوكه .كما نقف في الخطبة على شكل آخر من الاستفهام في قوله: "كيف تنفعكم تجربة أو تعضكم وقعة أو يجزيكم إسلام أو ينفعكم بيان؟" فهو الآخر استنكاريّ جيء به على صيغة تقريريّة إنشائيّة من حيث اللّفظ الظاهر، لكنّه خبر من حيث المعنى المضمر، أيّ: أنّهم لم يتّعظوا بالتّجارب والخطب ولا حتى الإسلام.فهو بهذا حاول أن يدفع المستمع إلى الإقرار بأحقية الحَجّاج بالإمارة عن طريق تخطيء الذّات (أهل العراق) ممّا يجعلنا نستنتج الطاقة الإقناعية للسّؤال المبنيّة على الضمنيّ لا المصرح به وهو الأمر الذي تعرض له "ديكرو Ducrot"في إطار نظرية المساءلة، حيث بيّن أنّ الافتراضات الضّمنيّة في بعض الأسئلة هي التي تجعل من الاستفهام أسلوبا حجاجيا لأنّ أية إجابة مهما كان نوعها لابد أن

تسلم بتلك الافتراضات بل تقرّ ضمنيا بصحّتها. وهو الأمر الذي ركّز عليه الحجّاج في آخر الخطبة الموجّهة لأهل العراق بصياغتها على شكل مجموعة من التّساؤلات:"هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع ، إلاّ تبعتموه وآويتموه ، ومصرتموه وزكيتموه؟ ... هل شغب شاغب ،أو زفر زافر إلاّ كنتم أتباعه وأنصاره ؟ ألم تنهكم المواعظ،ألم تزجركم الوقائع ؟"والتي تحمل مجموعة من الافتراضات الضّمنية التي تشير إلى ضرورة إعادة التّفكير في تصرفاتهم ومعاملاتهم وسذاجتهم؛فهي استفهامات تحمل اللّوم والعتاب والتّوبيخ كما تحمل الاستعطاف على حالهم. فالخطيب إذن ساق المعلوم مساق غيره[23] لتحقيق الأغراض السّالفة الذكر.

2.5. النداء:

وتتجلى وظيفته داخل الخطبة في تنبيه المخاطَب من طرف المخاطِب. فهو إذن أداة التّواصل بين الطرفيْن. ويشمل حرف النّداء "يا" واسم المنادى "أهل العراق" (الذي يلي الأداة)، في رسالة الخطاب. وقد تكرّر هذا الأسلوب داخل الخطبة خمس مرات؛ أربعة منها مُوجّهة لأهل العراق والخامسة لأهل الشّام. فما الغرض إذن الذي قام به هذا الأسلوب في الخطبة .

بالإضافة إلى الوظيفة التّنبيهيّة التّواصلية التي شكّلت المكون الأساس لهذا الأسلوب، يُمكن الوقوف على أغراض الرّسالة التي تحملها كلّ صياغة على حدة.

وفيما يلي بيان لذلك:

- يا أهل العراق إن الشيطان قد إستبطنكم... ⟵ تنبه على الحالة التي وصلوا إليها من الكفر والجحود
- يا أهل العراق والكفرات بعد الفجرات .... ⟵ التّنبيه و التّحسر على تصرفاتهم الطائشة
- يا أهل العراق هل شغب شاغب.... .. ⟵التنبيه والتحسر
- يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ.... ⟵ التنبيه والزجر والتأنيب والتوبيخ.
- يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم... ⟵ التنبه + التعظيم والتخصيص

لم يوظّف الخطيب في هذه الخطبة الأداة "أيها" التي تحضر في الخطب بكثرة وتستعمل لنداء القريب، إنما اختار توظيف الأداة "يا" التي تستعمل لنداء البعيد، ولا تستعمل للقريب إلا توكيداً[24] على المعنى أو الرسالة التي يحملها هذا الأسلوب. وبالتالي نستنتج أن الغرض من توظيفها من قِبَل الحجّاج اتجاه أهل العراق توكيد يوحي ببعدهم عن قلبه واهتمامه. أما اتجاه أهل الشام فهو توكيد يوحي بقربهم من قلبه ومكانتهم الرفيعة عنده.

3.5. الالتفات:

إن تحديد تعريف دقيق للالتفات سيجعلنا نتخبط بين العديد من التّعريفات المثبتة في كتب البلاغة، قديمها وحديثها، كما يزيد من صعوبة هذه التّحديدات اختلاف التّسميات التي أطلقت عليه والتّحديدات التي قدمت له. لكن هذا لا يشغلنا في بحثا هذا بقدر ما أن الهاجس الأكبر هو إبراز أهميته البلاغية الحجاجية داخل الخطبة. فإذا كان في أعم التّحديدات التي قدمت له هو "نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب"[25]واشترطوا في هذا الانتقال أن يكون مخالفا لمقتضى الحال[26]. والخطبة التي بين أيدينا تزخر بتنوع في هذا الأسلوب وبأشكال مختلفة[27] وفيما يلي بيان للغرض منه:

1.3.5. الالتفات بين الضمائر:

انتقال الخطيب في هذه العبارة "أنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لوذا" من ضمير المتكلّم المفرد إلى المخاطب الجمع لم يكن مجرد حلية لغوية بل إنه يمثل صورة بلاغية تفيد تشكيل المعنى عند المتلقي وذلك باستحضار السّياق الذي ركز عليه القدامى في تدليلهم لهذا الأسلوب مجددين الغرض منه، وقد عدّ له ابن الأثير أهدافا عِدّة نذكر منها التّوبيخ[28] باعتباره أثر دلالي حاول الحجّاج من خلاله التّأثير على المتلقي "أهل العراق" لفرارهم منه وخداعهم له والتّآمر عليه مع ابن الأشعث .فالتّعبير بصيغة المخاطب تسمح للمتكلّم أن يواجه المخاطب (أهل العراق) بنوع من المكاشفة والمصارحة واللّتان تصبحان في هذا السّياق أبلغ في الدّلالة على تمرد أهل العراق، ولم تكن عودته إلى صيغة المتكلّم المفرد إلاّ تأكيدا على قوته وانتصاره عليهم، فالتّركيز على الذّات هنا في مقابل الجماعة، افتخار لها وإبراز لشجاعتها. وبالتّالي يجعلنا أسلوب الالتفات في هذه الحالة نستشعر غرض

الحجّاج في التّأثير على نفسية أهل العراق من أجل تغير سلوكهم والانصياع لحكمه.

2.3.5.الالتفات بين صيغ الأفعال :

ويتمثّل في الإخبار عن صيغة الماضي بالمضارع[29] من أجل استحضار الصّورة والمشاهد القديمة أمام المستمع فقوله "تتسللون لوذاً وتنهزمون صراعاً" حاول الخطيب أن يُصوّر جحود أهل العراق واستمرارهم عليه عن طريق الاحتفاظ بصيغة المضارع من أجل الحديث عن أحداث وقعت في الماضي. فالخطبة بأكملها تقوم على هذا النّوع من الالتفات (خروج عن مقتضى الحال) والذي سعى من خلاله تصوير التوتر والصّراع الذي يعيشه مع أهل العراق .

عموما يمكن القول بأن أغراض هذا الأسلوب كثيرة "تدل على مكانته في علم المعاني وقدرته على التفنن في التعبير عن المعاني المختلفة".[30]

4.5. التّكرار :

يُعدُ التّكرار رافدا أساسيا يرفد الحجج أو البراهين التي يقدمها المتكلّم لفائدة أطروحة ما [31] أي أن التّكرار يوفّر لها طاقة مضافة تُحدث أثرا جليلاً في المتلقي وتساعد على نحو فعّال في إقناعه أو حمله على الإذعان (المصطلح لعبد الله صولة) من طرف المخِاطب . ويرى "أبو بكر العزاوي"أن المقصود من التكرار الاقناعي "ليس هو ذلك التكرار المولّد للرّتابة والملل ،أو التّكرار المولّد للخلل والهلهلة في البناء،ولكنه التّكرار المبدع الذي يدخل ضمن عملية بناء النص أو الكلام بصفة عامة،أي التّكرار الذي يسمح لنا بتوليد بنيات لغوية جديدة باعتباره أحد ميكانيزمات عملية إنتاج الكلام ،وهو أيضا التّكرار الذي يضمن انسجام النّص وتوالد وتناميه "[32] والخطبة التي بين أيدينا تجعلنا نقف على أكثر من مثال، اللفظي منه والصوتي، أم اللفظي منه "فيُعدّ من أفانين القول الرّافد للحجاج المدعم للطاقة الحجاجية"[33] وقد ارتبط ارتباطا وثيقا بتكرار اسم المكان "**دير الجماجم**"(مرتين) واسم الزمان "**يوم الزاوية**"(مرتين)، وأسلوب النداء "**يا أهل العراق**" (أربع مرات). فتكرار اسم المكان "دير الجماجم" غايته التذكير والتهويل بهذا المكان الذي هزم فيه أهل العراق؛ وبالتّالي يكون وقعه شديد على قلوبهم و أثره بليغ في الأسّماع والأذّهان. وهي الغاية نفسها من تكرار "أهل العراق" "ويوم الزاوية" بالإضافة لتحذيرهم وزجرهم من أجل إعلان توبتهم .

أما بخصوص التّكرار الصّوتي فهو كما عرفه "غارسيل يبير Garcellbera":"تكرار لنفس الصوت أو الأصوات في نهاية الكلمات ،توجد في مواضع متقاربة جداً يكون تأثيرها التّعبيري لافتا للأنظار .ويمكن لهذا التّجانس أن يكون صامتيا أو مركبا...[بينهما]"[34] والشّواهد في الخطبة كثيرة منها قول الحجاج:"اتبعتموه آويتموه ونصرتموه وزكيتموه" وقوله كذلك :**الكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات، والنزوات بعد النزوات**. يتّضح من خلالها التّجانس الصّوتي ملتبسا بالسّجع وهو دعم للصّنعة الصّوتية .فعناية الخطباء بالصّناعة الصّوتية مطلب يقتضيه المقام الخطابي الذي هو في الأساس مقام تأثير و استمالة فاستنجاد الخطباء بالمقومات الصّوتية والإيقاعية يأتي لمقاصد تداولية ،فإثارة انتباه مستمع التي لا تكون بالحجج أكثر مما تكون بتكرار لأصوات بعينها مثل قوله " **نفاقا وشقاقاً ،خلافاً ...قائداً ومؤامراً**" كما يمكن الوقوف على طاقته الحجاجية - التّكرار الصوتي - في انتهاء كلامه بالألف الممدودة الذي ترمز إلى الاستعلاء وهو الأمر الذي تعززه وتشهد له القرائن السّابقة (نفاقاً وشغافاً).

بالتالي يمكن القول أن التّكرار بالإضافة إلى ما يوفره من جرس موسيقي داخل الخطاب. فهو رافد من روافد التي يعتمدها الخطيب لترسيخ أفكاره ،وما اهتمامهم واحتفالهم به –الخطباء- إلاّ وعي بأهميته كرافد إقناعي.

5.5.السخرية:

تكمن أهمية "السّخرية" بحسب كيربرا أريكشيوني في كونها "تهاجم وتعتدي وتفضح وترمي هدفا"[35]، وبذلك يركز هذا النوع من الخطاب على الوظيفة الانفعالية أو التأثيرية، التي يتوسل إلى بلوغها بآليات لسانية (لغوية) بالدّرجة الأولى فهذا

النّوع من الخطاب كأسلوب للنقد يُسهل تجاوز المحاذير السياسية والاجتماعية...، ويُمكّن من الدخول في مخاطرات مقبولة ما لم نقل مأمونة. وبكل ذلك تتحوّل السّخرية إلى ممارسة ثقافية هدفها التّأثير شأنها في ذلك شأن كلّ فعل كلامي يروم تغيير الواقع والتأثير في المخاطب، فالغرض التّكلمي هنا بتعبير أوستينAustin غايته تصحيح الخطأ، وتصويب الاعوجاج وفضح الإدعاء، وإحداث أثر معين، أو رد فعل لدى المخاطب[36]. ولا شك أن اللّجوء إلى السّخرية لتمرير هذه الأغراض التّكلمية يضمن للخطاب تأثيرا أكبر. إنّ المتمعّن لبنية هذا السّؤال يتّضح خلوه من أي محسن كيفما كان**"ألستم أصحابي بالأهواز"**يدرك أننا إزاء دلالة حرفية وسؤال يكون الجواب عليه بحسب حرفية ظاهر الجملة. لكن باستحضار المقام التّخاطبي الذي قيل فيه، يجعلنا نتراجع عن تصورنا الأول ونقر بأننا أمام محسن فكري يدعى السّخرية. فلولا الاستعانة بالمقام ونوايا المتكلّم بل ونوايا المستمع لما فهمنا هذا المحسن الفكري بهذا الشّكل. وبالتّالي يمكن أن نعرفه باعتباره "إبدال الفكرة المطروحة بفكرة أخرى توجد في علاقة معها"[37] وبصيغة أبسط أن تقول الكلمات معنى عكس المعنى أو الواقع الذي تصفه، وهذا ما حدث في الشّاهد الذي قمنا بتقديمه فظاهر الكلام يقول شيء ومعناه السّياقي يقول عكسه. فهو استهزاء حاول الحَجّاج من خلاله التّأثير في أهل العراق عن طريق اللّعب بمشاعرهم والتّشكيك في قدراتهم من أجل الانصياع له .

6.5. التّخصيص و الحصر :

وظّف الحَجّاج أسلوب التّخصيص في خطبته عندما وجّه خطابه لأهل الشام ، ومعلوم أن أداة التّخصيص "إنما" تفيد الحصر والتخصيص وإيجاب الفعل[38]اتجاه المقصور ونفيه عن غيره دفعة واحد، ف"إنما" تخصص هنا الأفعال بالحجّاج لأن المقصور يلي مباشرة الأداة، وغرضه إبراز اهتمام الحَجّاج بأهل الشّام وتخصيصهم برعايته، فهذا المظهر البلاغي يؤكّد الجملة ويقوي العلاقة بين جزأين من أجزاء الكلام وجعل أحدهما مخصوصا بالآخر ملازما له ولا ينطبق على غيره. فالقرآن إذا أراد مثلا تخصيص الألوهية لله. يقول: **"إنما إلهكم الله"** وقد جاءت هذه الآية في سياق الرّد على المنكرين للوحدانية، فاستدعى المقام مثل هذا الأسلوب الذي يؤكّد المعنى ويحسم الأمر حسماً نهائياً، وبالتّالي تبرز لنا القوة الحجاجية الذي يتضمّنها هذا الأسلوب، فالحَجّاج باستحضاره إياه كان واعيا باختياره وذلك لإثبات أحقيته بالحكم والوصاية من جهة، والرّد على أهل العراق المنكرين للخلافة من جهة ثانية. فالتّأكيد على مساندة أهل الشّام وانتصارهم له رسالة مُوجّهة لأهل العراق المرتابين المشكّكين في نزاهة الحَجّاج؛ لأنّ هذا الأسلوب يناسب عادة نوعا من المخاطبين الذين يغلب عليهم الإنكار أو الشّك أو عدم الاطمئنان إلى رأي معين .

7.5. التوكيد:

تختلف مواقف النّاس عند سماع خبر من الأخبار وتتباين، وهذا يقتضي من المتكلّم استخدام الأسلوب المناسب لكل مقام، فقد يلجأ في بعض الحالات إلى استعمال أساليب التوّكيد لتمكين المعاني في النّفوس وإزالة ما بها من شك أو إنكار خاصة إذا كان المخاطب عالما بالخبر لكنه ينكره ويرده، ففي هذه الحالة لابدّ للبليغ من استخدام وسائل التّوكيد المختلفة وذلك على قدر الإنكار، حتى يتحقّق الإقناع ويسمى هذا الخبر الاستنكاري .

هذا الوصف الذي قدمناه لحدود الإنكار بين البات والمتلقي هو نفسه الذي حاول الحَجّاج تقليصه مع أهل العراق محاولا إقناعهم والتّأثير فيهم بأسلوب التوّكيد الذي يطالعنا منذ البداية في الخطبة **"إن الشيطان قد استطبنكم"**؛ وهو خبر استنكاري جاء بأكثر من أداة توكيدية **(إن– قد)** لتأكيد على مدى جحودهم وتَمكّن الشّيطان منهم. مفصلا من خلال هذا الخبر دقائق النّفس العراقية المتمردة على ولائها .

8.5.الاستعارة :

رغم ما يطرحه هذا الأسلوب الاستعاري على المستوى التّواصلي من صعوبات تُشوّش على الإدراك العادي لدلالاته، إلا أنه مع ذلك يبقى من قبيل الأقوال الطّبيعية التي توظّف لإبلاغ وإفهام الغير بما تحمله من معرفة. تساهم الاستعارة إلى حد بعيد في تكوين وتهيئة الخطاب الحجاجي، فهي من"أقرب الوسائل الهادفة إلى الإقناع وما ينجرّ عليه من تفسيرات، كلّ تفسير يضيف شيئا للآخر ويزيد في الفهم، فيصبح الخطاب مفتوحا على عدد لا متناه من القراءات المقاربة لمعناه، وهناك

من النّقاد من عدّها آلية ضرورية في بناء القول الحجاجي والتأثير في المتلقي قصد تغيير وجهة فهمه أو تقزيم سلوكاته بالبراهين والحجج المفحمة"[39]. ورغم انحرافه عن التّواصل اليومي العادي ومخالفته للمقتضى القيمي للمنطق، بجمعه بين المتناقضات واختلاف منطقوه عن مفهومه؛ نجده لا يقل إبلاغا عن الخطاب العادي وذلك بسبب تقيّده بمقومات الكلام وأغراضه .

والشّاهد الذي بين أيدينا "**عضّكم السّلاح**" لم تكن غاية الخطيب في هذه البنية الاستعارية استبدال كلمة "**حيوان مفترس**" بكلمة "**السّلاح**"، بقدر ما يتعلّق لديه الأمر بحالة دعوى يعتقد فيها اعتقاداً صادقا أن السّلاح حيوان مفترس. وقصد دفع اعتراض مستمعيه بسبب ما في هذه الدعوى من لبس، عمد الخطيب إلى استدراج ومخادعة المستمعين، بناء على أن الاستدراج فيما يرى "ابن الأثير" شكل من أشكال " مخادعة الأقوال التي تقوم مقام مخادعة الأفعال[...] في استدراج الخصم على الإذعان والتسليم"[40] .ومن مظاهر هذا الاسّتدراج الذي يراد به إقناع المتلقين؛ بأن شراسة السّلاح لا تقل عنفا من شراسة الحيوان المفترس وذلك باستحضار الدليل (عضّكم).

إن التّعارض الحجاجي القائم بين الخطيب ومستمعيه في البنية الاستعارية السّابقة، يكشف لنا عن مدى قدرة الخطيب على أن يكثر من ذواته. فقد جرد من نفسه ذاتين اعتباريتين، الأولى مظهِرة تدعي المطابقة بين "**السلاح**" و"**الحيوان المفترس**"بناءاً على الدليل (عضّكم) بوصفه مقوماً مشتركاً بين الطرفين. والذات الثانية مؤوِلة[41] تنكر من خلال المعنى الحرفي للبنية الاستعارية المطابقة بين "**السّلاح**" "**السّبع**".

وقد مكن الاسّتدراج السّابق الخطيب، من إعمال المستمعين لعقله قصد تأويل المعنى الحرفي للادعاء ، ومن تم الاقتناع بأن السّلاح كالحيوان المفترس كلاهما عنيف وشرس، فهو في الحقيقة إبراز لقوة وشدة سلاح جنوده في وقعة دير الجماجم.

بيد أن تحقق هذا الإقناع يستوجب مرور المتلقين في استدلالاتهم العقلية بلحظتين: تهم الأولى استحضار مجموعة المقومات السّياقية والمعرفية لدليل "**عضّكم**" وما يحيل عليه من دلالات الشّدة والعنف والشّراسة...، فيما تهم اللّحظة الثّانية البحث عن مظاهر هذه الدّلالات في فعل السّلاح في الإنسان. وانطلاقا من الدّليل السابق باعتباره وسيط المعنى الحرفي للإدعاء ومعناه الاستعاري الاستلزامي، يرمي الخطيب إلى أن يعقل مستمعيه عن طريق الاستدلال معنى ثانيا غير المعنى الحرفي للإدعاء. وفي هذا تكريس للتعارض الحجاجي بين الخطيب ومستمعيه، بناءاً على أن الاستدلال فيه دائماً طلب للبنية وللدليل اللذين يبرهن بهما على الإقناع .

وإذا وسعنا مجال البنية الاستعارية التي نحن بصددها ، ونظرنا إليها في سياق العام للخطبة؛ فإننا سنجدها بدليلها (عضّكم) حجة كبرى تخدم نتيجة(مقصدية الخطبة). ويمكن أن نمثل هذه العلاقة الحجاجية على النحو الآتي:

الحجّة:عضّكم السّلاح

النّتيجة:الحجّاج وجنوده قوي على أهل العراق

يستفاد ممّا تقدم، أن الأسلوب الاستعاري يبقى من أهم أشكال الخطاب اللغوي ارتباطا بالمقام التخاطبي، ووسيلة من الوسائل اللغوية التي تتيح للمتكلّم تحقيق مآربه الحجاجية سواء بالاستدراج أم الاستدلال.

9.5.التّشبيه :

يحمل أسلوب التّشبيه شحنةً حجاجيةً اقناعية أكثر منها جماليةً، تُعنى بزخرفة الألفاظ وتقريب المعاني، فلذة القارئ لا تكون في العبارات السّطحية، المتعارف عليها، وإنما في العبارات المشعَّة بالغموض، التي تدفع القارئ إلى محاورة هذه الصّورة، والاقتناع بحجج القائل، فالتَّشبيه يوضِّح القولَ ويبيّنه كما ذهب إلى ذلك أبو هلال العسكري (ت395ه) بقوله:" والتَّشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيداً، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحدٌ منهم عنه"[42]، ولهذا الكلام مال "أبو سنان الخفاجي (ت466ه) " في كتابه "سرُّ الفصاحة" وهذا ما نستشفه من قوله:"والأصل في حسن التَّشبيه أن يمثل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظّاهر المحسوس المعتاد، فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد "[43]. و التّشبيه قادرعلى إيراد المعاني الخفية في صورة جلية، وعرض للأفكار البعيدة بتعبيرات تجعلها قريبة. فضلا عما يلبسها من أثواب

جميلة[44] فكلّما كان التّشبيه مقبولا طريفا ممتعا، أحدث استجابة لدى المخاطبين. فقد تحدث البلاغيون القدامى عن أغراضه، والتي تدل على وظيفته الإبلاغية التّأثيرية في توصيل المعاني إلى النّفوس . نذكر منها بيان حال المشبه، وتأكيد التّشبيه وتقريره في الذهن ،كما أشار المحدثون إلى أغراض أخرى كحمل المخاطب على الإذعان بفكرة أو تحقيق قدر من المتعة الوجدانيّة والفكريّة، أو إثارة عاطفة الطّمع والرّغبة في الأشياء، أو الخوف والحذر في النّفس، أو المدح أو الذّم، وشحذ ذهن المخاطب وتحريك طاقته الفكرية...[45].

حضر هذا الأسلوب في النّص بقوة وبصيغته التّقليدية الكلاسية. فليس قوله "كالإبل الشوارد " إلاّ تأكيداً على أصالته البدوية، فالصّورة هنا مُنتزعة من البيئة الصّحراوية، حيث هناك مُتّسعاً مكانياً للشرود، وهو ما يخدم الوظيفة الإقناعية، فشرود الإبل عن أصحابها، وهُمْ أحق بها، كشرود الرّعية عن وليها. فالتّشبيه هنا جاء ليُقدّم صورة للشرود والتيه التي وصل إليها أهل العراق.

10.5.الاقتباس:

هو أن يتضمن الكلام شيء من القرآن والحديث ولا ينبه عليه للعلم به[46]وغرضه تقوية الكلام للإقناع وتزينه من جهة الألفاظ والمعاني وتحسين ألفاظه ونضمه يمكننا أن نعتبر المعجم القرآني ومضامينه وأساليبه ووقائعه، النّص المضمر في الخطبة؛ حيث يمثل القرآن الرّافد الأساسي في هذه الخطبة ابتداء من الفكرة الجوهرية في النص. فاستبطان الشيطان فكرة ترددت كثير في القرآن. بل الأكثر من هذا فقد استخدم جملا قرآنية بأكملها "تتسللون لواذا "[47]، وأفكارا "لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلو الشيخ على بنيه"[48]. كما وظف أسلوب الاستفهام التهويلي القرآني تناصا مع الآيات الكريمة "الحاقة ما الحاقة "[49] "القارعة ما القارعة "[50] في قوله "يوم الزاوية وما يوم الزاوية" و"يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم". منتهيا بالتناص السياقي لحدث رجوع المتخاذلين عن الحرب " نكص على عقبيه"[51] في قوله ونكوص وليكم عنكم.

عموما يمكن القول أن اللّغة تؤدي وظائف متعدّدة انطلاقا من المقام الذي تشتغل عليه، حيث تصبح موجّهة لخدمة أغراض المتكلمين لتستبطن خطابا يتنوّع بتنوع المخاطب المستهدف، ولأنّ مقام الخطبة مرتبط بالمدح والذم والوعظ ، فإن أنسب معجم يمكن أن يجعل مهمتها ناجعة، هو استرفاد لغة القرآن من طرف الخطيب، مازجا فيها بين السياق القرآني وسياق الخطبة، المبنية على هدف مسبق، بهدف جعله خطابه يرقى إلى خطاب القرآن.

إن حضور القرآن إنما هو في حد ذاته غاية، أساسها الإقناع، حيث يصبح القول القرآني حجة تمارس نوعا من العنف على المتلقي باعتباره مسلما لخطابها، والخطيب يجيد فعل التمويه قصد الاحتيال على عواطف الناس.

11.5.المقابلة:

تُعدّ المقابلة مصدر من مصادر الاستدلال الخطابي وتكون بين شيئين لتمييز الحق من الزائف إذ بضدها تتميز الأشياء وبنظائرها تعرف. كما تعرف كذلك بذكر الشيء ومقابله مع تعديد صفاتهما مما يسمح بتمييز النافع من الضار. وهي القاعدة التي أسس عليها الحجّاج خطبته ، مقابلا بين صفات أهل العراق وصفات وأهل الشام. التي أراد من خلالها استمالة المخاطب- أهل العراق- وإقناعه بصواب موقفه مقدما العبرة والمثال بأهل الشام .حيث قال:" يا أهل الشام ، إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه، ينفي عنها المدر، ويباعد عنها الحجر، ويكنها من المطر، ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذباب"ثم التفت لأهل الشام قائلا:" يا أهل الشام أنتم الجُنة والرداء، وأنتم العدة والحذاء يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره. يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ، ألم تزجركم الوقائع ".

وإذا كانت المقابلة تعتمد مقدمتين فإنها تنتهي حتما إلى نتيجة تتولّد عنها. وقد انتهى الخطيب من تلك المقابلة بين الحالتين إلى التحسر على ما آل إليه أهل العراق وتنبيههم إلى سوء حالهم، في مقابل الانتصار والرضا لموقف أهل الشام.

6.خاتمة:

نخلص في الأخير إلى أن هذه الخطبة تعتبر مثالا حيا على تعايش جملة من الأساليب الحجاجية والتّصويرية، وعلى الطاقة

الإيحائيّة للغة من جهة، وبراعة الخطيب من جهة ثانية، فقد استطاع من خلال مهارته اللغوية أن يصوّر لنا الجو العام لتلك الفترة الزمنية التي حملت الكثير من الصراعات معتمدا بذلك إمكانات لغوية هائلة من تشبيه ،واستعارة، وتوكيد...

كما نجد استخداما واضحا للمحسنات من تواز وتكرار وجناس...التي أعطت للخطبة بعدا جماليا إقناعيا تأثيريا خالصا.

فالنّص مليء بالإيحاء والتخييل لغة ومعجما، أسلوبا، وإيقاعا خدمة للغرض الحجاجي في الخطبة، والتي تمتاز بانحسار دائرة التّداخل فيها بن الخطيب والمستمع،إذ تكاد تنعدم فيها ما يصطلح عليه "بمساحة التفاوض" ؛ فهو نص تحرضي يعتمد ذم المخاطَب (أهل العراق) والحط من أخلاقهم وقدراتهم القتالية .

يمكن القول إن المقومات اللغويّة والمحسنات، والإيقاعية، والبيانية الإستعارية، والتشبيهية، ليست مجرد أدوات تزينية، بل إنها مقومات حجاجية لا تقل أهمية عن القياسات المضمرة وعن الشّاهد والانفعالات والأخذ بالوجوه.

7. الملحق(نص الخطبة):

خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي أهل العراق بعد دير الجماجم فقال:((يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى الأفخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وأشعركم خلافاً. أخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤامراً تستشيرونه. فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجركم إسلام، أو ينفعكم بيان. ألستم أصحابي بالأهواز، حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذاً وتهزمون سراعاً . ثم يوم الزاوية، وما يوم الزاوية، بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح وقصمكم الرماح. ثم يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم، بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله. يا أهل العراق، الكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات، والنزوة بعد النزوات. إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة. هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استصرخكم ظالم، أو استعضدكم خالع، إلا تبعتموه وآويتموه، ونصرتموه ورحبتموه. يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره. يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ، ألم تزجركم الوقائع)).

ثم التفت إلى أهل الشام فقال ((يا أهل الشام ، إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه، ينفي عنها المدر، ويباعد عنها الحجر، ويكنها من المطر، ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذباب. يا أهل الشام أنتم الجُنة والرداء، وأنتم العدة والحذاء

8.المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش

1- أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1967م.

2- أحمد الشايب ،الأسلوب،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط6، 1966م.

3-أحمد زكي صفوة،جمهرة خطب العرب في العصور الزاهرة، المكتبة العلمية، ط:1، بيروت، (د.ز)

4-ابن الأثير ، المثل السائر، ت: بدوي طبانة وأحمد الحوفي،ط:1 ، دار نهضة مصر، القاهرة ، 1973 .

5-أرسطو، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، الترجمة العربية القديمة حققه وعلق عليه عبد الرحمن بدوي، دار القلم، 1979 بيروت ،1979م.

6- أبو بكر العزواي ، اللغة والحجاج ، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2006 .

[7]- بيرجيرو،الأسلوب والأسلوبية،تر: منذر عياشي، مركز الإخاء القومي، بيروت، لبنان، د ت.

8-حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ،مجلة عالم الفكر،المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، مج، 30، ع10 1سبتمبر،2001.

[9]- انظر: رولان بارت،قراءة جديدة للبلاغة القديمة،تر: ، عبد الكبير الشرقاوي، نشر الفنك، 1994 م.

10- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث،كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية-تونس ،2008م.

11- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1402هـ، 1982م.

12-شهاب الدين محمود الحلبي(725هـ) ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر (سلسلة كتب التراث) العراق ، 1980م

13-صابر حباشة، التداولية و الحجاج،مداخل ونصوص،ط1،صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا،2008م.

14- عبد الله بهلول ،في بلاغة الخطاب البلاغي ،سلسلة بحوث ودراسات، التسفير الفني صفاقس،تونس ، 2007 م.

15-عبد الله صوله،الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية،،منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات .ط1،تونس، 2001 م.

16-علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه ،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، القاهرة، مصر

17-عبد النبي ذاكر،العين الساخرة أقنعتها وقناعاتها في الرحلة المغربية ،المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة ، أكادير،المغرب،2000م

18- بن عيسى بالطاهر ، البلاغة العربية (مقدمات وتطبيقات) ، دار الكتاب الجديد ،يناير2008، (د.م)

19- فرانسو مورو، البلاغة، (المدخل لدراسة الصور البيانية)، ت:الوالي محمد و جرير عائشة، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي ، المحمدية ، 1989م

20-محمد سالم ولد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان، محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند برلمان و تطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر العدد 3 المجلد 28، 2000م.

21- محمَّد العبد، "النَّص الحجاجي العربي"، مجلة جذور، السعودية، 1426هـ، 2006م، مج09، ج21.

22- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوب،مكتبة الحرية الحديثة، ط1،القاهرة، مصر، 1984، ص193.

23-محمد مشبال البلاغة والأصول (دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي نموذج ابن اجني) ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء ، 2007م

24 - محمد مشبال، مقولات بلاغية في تحليل الشعر، مطبعة المعارف الجديدة، ط1، الرباط،1993م

25- محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، منشورات، دار الأمان، ،ط1 ،الرباط،المغرب،2005م

26-هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، ترجمة وتقديم وتعليق محمد العمري، منشورات دراسات سال، ط1، الدار البيضاء،1989

27- أبو هلال العسكري، الصناعتين في الشعر والنثر، تح: محمد أمين الخانجي، مطبعة الإستانة العليا، 1320هـ.

28-Chaim Perlman et Lucie Olbrechts-Tyteca op, cit, pp.69 et 71.

29-Olivier Riboul , Peut- il y avoir une argumentation non rhétorique? In L' argumentation, Colloque de Cerisy, Pierre Mardaga ed. 1991.p. 108.

30- Paul Ricoeur, Rhétorique- Poétique – Herméneutique, in De la métaphysique à la rhétorique, op, cit., p. 145-150

1- صابر حباشة، التداولية و الحجاج،مداخل ونصوص،ط1،صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا،2008،ص15-16.

2- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند برلمان و تطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر العدد 3 المجلد 28، 2000 ص، 62.

3-حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ،مجلة عالم الفكر،المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، مج، 30، ع10 1سبتمبر، 2001، ص12

4- عبد الله صوله،الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية،،منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات .ط1،تونس، 2001 م ص344

5-المرجع نفسه،ص 346

6- Olivier Riboul , Peut- il y avoir une argumentation non rhétorique? In L' argumentation, Colloque de Cerisy, Pierre Mardaga ed. 1991.p. 108.

7- Paul Ricoeur, Rhétorique- Poétique – Herméneutique, in De la métaphysique à la rhétorique, op, cit., p. 145-150

8- Olivier Reboul, Peut- il y avoir une argumentation non rhétorique? In L'argumentation p186.

* أحمد زكي صفوة ،جمهرة خطب العرب في العصور الزاهرة، المكتبة العلمية ، بيروت (د.ت)،ص293-294

** هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، نشأ في الطائف ثم التحق بجند عبد الملك بن مروان، وقد انكشفت مواهبه القيادية فولاه عبد الملك أمر عسكره، ثم وجهه إلى ابن الزبير في مكة فقضى عليه، وبعد وفاة بشر بن مروان ولاه عبد الملك العراق .وأما فصاحة الحجاج وبلاغته فقد شهد بها القاصي والداني، وهو يعشق الألفاظ

الغربية والأساليب المتينة وينفر من الأساليب المبتذلة، وقد استمر في ولاية العراق إلى أن توفي سنة 95 هـ

*** ابن الأشعث، هو من قام بتحريض أهل العراق على الحجاج سنة83هـ في وقعة دير الجماجم فهزم فيها. وفر إلى فارس .فقتل نفسه بعد أن كان ملك الفرس سيلمه إلى الحجاج . فقام بإرسال رأسه إلى الحجاج

[9]- فرانسو مورو، البلاغة، (المدخل لدراسة الصور البيانية، ت:الوالي محمد و جرير عائشة ، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي ، المحمدية المغرب،1989، ص:6

- يرى بيرلمان أن الحجاج في الخطابين القضائي والاستشاري ذو تأثير عملي بينما يكون في الخطاب الاحتفالي تأثيرا نفسيا. 0[1]

Chaim Perlman et Lucie Olbrechts-Tyteca op, cit, pp.69 et 71.

1[1] - محمد مشبال البلاغة والأصول (دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي نموذج ابن اجني) ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء ، 2007،ص ، ص 136/135

2[1]- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوب،مكتبة الحرية الحديثة، ط1،القاهرة، مصر، 1984، ص193.

3[1]- انظر: علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه ،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، القاهرة، مصر،ص17.

[14]- المصدر نفسه، ص24.

5[1]- انظر: رولان بارت،قراءة جديدة للبلاغة القديمة،تر:عمر أوكان،ص26.

6[1]- أرسطو، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، الترجمة العربية القديمة حققه وعلق عليه عبد الرحمن بدوي، دار القلم، 1979، بيروت،ص3.

7[1]- أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، بيروت، ط2 لبنان، 1967م، ص68.

8[1]- أحمد الشايب ،الأسلوب،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط6، 1966م،ص44.

9[1]- بييرجيرو،الأسلوب والأسلوبية،ترة: منذر عياشي، مركز الإخاء القومي، بيروت، لبنان، د ت،ص7.

0[2]- المرجع نفسه ،ص88.

21-هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، ترجمة وتقديم وتعليق محمد العمري، منشورات دراسات سال1989، ط1، الدار البيضاء،ص22

22 - عبد الله بهلول ،في بلاغة الخطاب البلاغي ،سلسلة بحوث ودراسات، التسفير الفني صفاقس،تونس ، 2007 ص:60

23- شهاب الدين محمود الحلبي(725هـ) ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر (سلسلة كتب التراث) ، العراق ، 1980، ص 231

4[2]-بن عيسى بالطاهر ، البلاغة العربية (مقدمات وتطبيقات) ، دار الكتاب الجديد ،يناير2008، (د.م) ، ص:90

5[2] - محمد مشبال البلاغة والأصول (دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي نموذج ابن اجني) ،ص135

6[2] - محمد مشبال، مقولات بلاغية في تحليل الشعر، مطبعة المعارف الجديدة، ط1، الرباط،1993، ص64

7[2]- انظر محمد مشبال في كتابيه البلاغة والأصول ص134

8[2]- شهاب الدين محمود الحلبي ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق: أكرم عثمان يوسف ،ص 86

29-المصدر نفسه،ص 186

30-المصدر نفسه،ص187

31- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث،كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية-تونس 2008.ص168

32- أبو بكر العزواي ، اللغة والحجاج ، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2006 ، ص 48

3[3]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه ، ص168

4[3]- محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، منشورات، دار الأمان، 2005، ط:1، الرباط ،ص125

35-أحمد شايب، الضحك في الأدب الأندلسي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2004، ص 190

36-عبد النبي ذاكر،العين الساخرة أقنعتها وقناعاتها في الرحلة المغربية ،المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة ،2000، أكادير،المغرب،ص.13

7[3]- محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، ،ص164

8[3]- شهاب الدين محمود الحلبي ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، ص 174

39- محمَّد العبد، "النَّص الحجاجي العربي"، مجلة جذور، السعودية، 1426هـ، 2006م، مج09، ج21، ص 243.

40-ابن الأثير، المثل السائر، ت: بدوي طبانة وأحمد الحوفي،ط1 ، دار نهضة، مصر، القاهرة ، 1973 ، ص205

1[4]- المصدر نفسه،ص205-206

42- أبو هلال العسكري، الصناعتين في الشعر والنثر، تح: محمد أمين الخانجي، مطبعة الإستانة العليا، 1320هـ، ص 183.

43- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1402هـ، 1982م، ص 246.

[4] - بن عيسى بالطاهر ، البلاغة العربية (مقدمات وتطبيقات) ، دار الكتاب الجديد ،يناير2008، (د.م) ص32

[4] -المرجع نفسه، ص 44.

[4] - شهاب الدين محمود الحلبي ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق: أكرم عثمان يوسف حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، ص323.

[4] - سورة النور،الآية: 61 " قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره".

[4] - سورة عبس،الآية: 35/34 ، " يوم يفر المرء من أخيه وأمه وبنيه".

[4] - سورة الحاقة .

[5] - سورة القارعة .

[5] - سورة التوبة